# التّحول المنهجي في الخطاب النّقدي عند عبد الملك مرتاض

# The methodological shift in the critical discourse of Abd-El- Malek Mortad

**1 ليلى بردي** *

جامعة أبو القاسم سعد الله، (الجزائر)، leila.berdi@univ-alger2.dz

**2 إيمان العشي**

جامعة أبو القاسم سعد الله، (الجزائر)، imanlachi86@gmail.com

**مخبر الترجمة والمصطلح**

تاريخ الارسال2023/07/11 تاريخ القبول 2024/03/14 تاريخ النشر 2024/03/31

**ملخص:**

عرف النّقد الأدبي عبر مسيرته الطويلة تحولات عديدة، بداية بالمرحلة السياقية التّي اهتمت بدراسة النّص الأدبي انطلاقاً من العوامل الخارجية، وصولا إلى مرحلة النّسق التّي تميزت بالمحايثة، وفي هذا الإطار تميز المنجز النقدي الجزائري بوجود محاولات جادة؛ مثل تجربة النّاقد عبد الملك مرتاض الّذي اشتغل على مكاشفة أجناس أدبية مختلفة مراعياً خصوصياتها الجمالية.

حاول عبد الملك مرتاض التّأسيس لمشروع نقدي زاوج فيه بين التراث والحداثة، سعياً منه لإيجاد حلول توفيقية بين مختلف المناهج النقدية تنظيراً وتطبيقاً؛ حيث نجده يدعو إلى ما يعرف بالتركيب المنهجي عن طريق توظيف أكثر من مقاربة منهجية في دراسة النّص الأدبي مع مراعاة الخلفية الفلسفية والمعرفية للمناهج المركبة.

**الكلمات المفتاحية:** (النّقد الأدبي، تحولات، السياقيّة، النسق، التركيب)

**Abstract**:

Literary criticism has known many transformations over its long journey, beginning with the contextual stage that focused on studying the literary text based on external factors, reaching the systematic stage that was characterized by immanence. In this context, the Algerian critical achievement was distinguished by the presence of serious attempts. Such as the experience of critic Abd-el- Malek Mortad, who worked on exposing different literary genres, taking into account their aesthetic characteristics.

Abd-el- Malek Mortad tried to establish a critical project that combined heritage and modernity, seeking to find reconciling solutions between the various critical approaches in theory and practice. We find him calling for what is known as methodological synthesis by employing more than one methodological approach in studying the literary text, taking into account the philosophical and cognitive background of the combined approaches.

**Keywords:** Literary criticism, transformations, contextualism, style, structure.

* ليلى بردي

## 1. مقدمة:

شهد النّقد الأدبي تحولات عديدة، بداية بالمرحلة السياقية التّي اهتمت بدراسة النّص الأدبي انطلاقاً من المعطيات التاريخية، والظروف الاجتماعية، والمؤشرات النفسية، مروراً إلى مرحلة النّسق التّي تميزت بالمقاربة المحايثة؛ التي تقوم على إقصاء المرجع ومنح السلطة المطلقة للنّص باعتباره محورا للقراءة، ومنتجا للمعنى، وذلك بفعل الثورة المنهجية التّي أحدثتها اللّسانيات، فكان أن خرج من رحمها كل من البنيوية والسيميائية والأسلوبية، وفي هذا السياق عرف المنجز النقدي الجزائري محاولات جادة في هذا المجال، منها تجربة النّاقد "عبد الملك مرتاض" الّذي عني بدراسة أجناس أدبية مختلفة مراعياً خصوصياتها الثقافية؛ حيث درس النص القرآني؛ متمثلا في "سورة الرحمن"، والنص الشعري مثل "قصيدة شناشل ابنة الجلبي" لبدر شاكر السياب، وقصيدة "أين ليلاي" لمحمد العيد آل خليفة"، والنص السردي مثل رواية "زقاق المدق" لنجيب محفوظ"، والنص الشعبي مثل الأمثال والألغاز...إلخ، وقد تأتى له ذلك بمناهج متعددة، وهذا إن دلّ على شيء إنّما يدل على عمق تجربته النّقدية، وقدرته على التعامل مع مختلف النّصوص، ووعيه بخصوصيات الأجناس الأدبية وجمالياتها.

وبالنظر إلى هذا التراكم النوعي في المعالجة النقدية كان من البديهي أن عرف الناقد تحولاً منهجياً في الإجراء والتحليل؛ إلا أن مفهوم التحول المنهجي في هذا الباب ليس بالأمر الهين، بل هو صعب للغاية؛ كونه يتمخض عن مجموعة من الصراعات والتجاوزات، وهي إشكالية واجهت العديد من النّقاد بما فيهم عبد الملك مرتاض؛ وقد تجسد ذلك في خروجه عن المنهج الذي عادة ما كان يصرح به في بداية كتاباته، غير أن هذا لا يوحي بوجود تناقض معرفي لديه بقدر ما يعكس مرونة في التفكير؛ على أساس أن الفكر النقدي يفترض فيه أن يكون سلساً ومنفتحا على الآراء المتعددة التي لا حصر لها.

ومما سبق تشكلت لدينا جملة من التساؤلات المركزية؛ متمثلة في: كيف تبلور الفكر النّقدي عند عبد الملك مرتاض؟، وما هي ملامح التحولات المنهجية في تجربته النّقدية؟، وهل كانت له إسهامات حقيقية في الارتقاء بالنّقد الأدبي الجزائري الحديث والمعاصر؟.

## 2.المرجعيات المعرفية للناقد عبد الملك مرتاض:

ينم الفكر النّقدي لعبد الملك مرتاض عن تنوع معرفي ظاهر شأنه في ذلك شأن كثير من النّقاد الجزائريين؛ حيث وجدناه يحط رحاله على أعتاب التراث والحداثة، وما يتصل بهما من طروحات نقدية مختلفة في التصور والمرجع، إلا أنه تمكن إلى حد بعيد من التوفيق بينها في الاشتغال والممارسة، ويمكن ردّ هذا التوفيق إلى السند التعليمي؛ حيث ساعده على المزاوجة بين الفكر الأصيل الّذي يجسد جهد أجدادنا وخبراتهم، والحداثة بما فيها من جدّة وابتكار وتطوّر، فهذا التنوع الثقافي كان كفيلا بأن يفتح له آفاقا للقراءة والتأويل.

والملاحظ على مختلف طروحاته النّقديّة أنها تتجاوز فكرة القطيعة المعرفية بين ما هو تراثي وما هو حداثي، لكن من وجهة نظره الخاصة التي تتطلع لمقاربة تراثية مطعمة بأدوات حداثية تستجيب للأسئلة النص الأدبي في منجزه الحديث والمعاصر.

ولا شك أن الاعتزاز بالتّراث والسعي لإحيائه، ودراسته بأساليب جديدة يعكس الرؤية الخاصة للنّاقد ويبشر في الوقت نفسه بأن الذهنية النقدية الجزائرية لم تكن حبيسة الدرس الكلاسيكي في مراجعة النصوص بل راحت تنفتح على روح العصر في ترسيم مساراتها المنهجية.

حاول عبد الملك مرتاض وضع بصمته الخاصة من هذا المدخل، فما كان منه إلا أن «استطاع إلى حدّ ما التوفيق في نهله من رافدي التراث والحداثة، نظراً لامتلاكه ناصية ازدواجية المعرفة والمرجعية الثقافية التّي يستند عليها في كتاباته الإبداعية والنّقدية، هذه الأخيرة –كتاباته النّقديّة– التّي تركّز طرحها على ثنائية التنظير والتطبيق بإستراتيجية نقدية كيّف فيها المناهج الغربيّة وفق ما يستدعيه النّص الأدبي العربي (السردي والشعري)، حتّى يحافظ على خصوصية العربيّة، وهي حقيقة يدعمها "مرتاض" من خلال المقدّمات المنهجيّة الطّوال التّي تتصدر كثيراً من مقارباته النّقدية، والتّي يحاول فيها تحديد الإطار النظري والابستيمولوجي والتطبيقي في أصله الغربي، وكذا تلك المسحة التراثية التّي يضفيها على مقدماته لما يتناول قضية في النّقد الحداثي الغربي، ليحاول التنقيب عن جذورها في التراث العربي الإسلامي»[1].

يفتح عبد الملك مرتاض آفاقاً جديدة لمستقبل النّقد العربي في الجزائر، عن طريق تأسيسه لمشروع نقدي يحتكم إلى التركيب من حيث المرجعيات، والتكامل من حيث الإجراءات؛ لأنه من غير المعقول الانطلاق من العدم، بل لابد من الرجوع للخبرة التراثية والعمل على الإفادة منها، ترسيخا للقدرات المعرفية، ومواصلة للمسيرة العلمية، وفي السياق ذاته لا يمكن للناقد أن ينغلق على ذاته فكريا بحجة الوفاء للموروث، وإنَّما عليه أن يخدم هذا الموروث ويعززه، ويكيفه وفق ما هو سائد حتّى يُنتفع به.

وإذا كانت مراجعة التراث واجب معرفي فإن التّجديد أمر محتوم في أي ميدان من ميادين الفكر الإنساني؛ لأن الحقائق الّتي بين أيدينا وإن كانت اليوم يقينية، فإن تطور المعارف يخضعها للنسبية، لهذا فالتّسليم بحقائق الأمور والتوقف عندها، سواء في مجال النّقد أو غيرها يكبح عجلة الرقي والازدهار.

كان هذا حال المشهد النقدي في الجزائر؛ فلا يكاد يثبت على منهج حتى نجده مقبلا على آخر مدفوعا بهاجس التجريب؛ و«هكذا أضحى الخطاب النّقدي الجزائري عند "عبد الملك مرتاض" لا يطمئن للجاهز، فهو يراجع أدواته باستمرار، ويترقب الجديد ليتكيّف معه، وفق رؤية منهجية واضحة ومحدّدة تجعل من الفعل القرائي فعلاً مستمراً لا يتوقف، يبدأ من الحاضر والرّاهن وينطلق إلى الماضي والتّراث، ثمَّ يرتّد إلى الحاضر مرَّة أخرى في حركة لا تهدأ ولا يقرّ لها قرار...»[2].

تتكشف مظاهر الفعل القرائي في سياق هذا النشاط المستمر من المراجعة والبحث من منطلق مفهوم المتغير المنهجي في النقد الأدبي؛ دلالة على أهمية القراءة كإستراتيجية رئيسية تتدخل في تشكيل الوعي التأويلي لدى الناقد، ولا تحقق القراءة النقدية المقاصد المطلوبة إلا إذا كانت قائمة على الكشف والفحص، فضلا عن أنها مبنية على الشك المعرفي.

وبالنظر إلى تنوع المنجز النّقدي لعبد الملك مرتاض فإن دراسته تفرض أن نتتبع أهم المحطات المنهجية التي مرّ بها في سياق محاورته للنماذج الأدبية المختلفة، ولعل ما ساعده على التنقل المستمر من تصور لآخر، وعدم التقيد باتجاه بعينه ثقافته الأدبية فضلا عن مرجعيته النقدية؛ فقد كان أديباً وناقداً في الوقت نفسه، وهذا ما سمح له بمساءلة العمل الأدبي بروح الفن، متطلعا لبعث النص وولادته من جديد.

### 3.التحول النقدي عند عبد الملك مرتاض من السياق إلى النسق:

استهل الناقد الجزائري عبد الملك مرتاض مسيرته النقدية بالمقاربة الانطباعية، وكان ذلك في أواخر الستينيات، وقد تجلت ملامح هذا الاتجاه في كتابيه (القصة في الأدب العربي القديم) سنة 1968، و(نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر) سنة 1971، إلا أن اللافت للنظر في هذه البداية أن الناقد لم يقصد الوجهة الانطباعية قصدا، وإنما قادته إليها فطرته النقدية الأولى.

لكنه سرعان ما حاد عنه؛ لأنه لم يعد يستجيب لرؤيته المنهجية الجديدة، بل راح ينعت ممارسيه بـ «الكلاسيكيين الانطباعيين المتعصبين الذّين يتسلطون ظلماً وعدواناً على المؤلف فيزعجونه بالترهات طوراً، ويطرونه بالمدح طوراً، ويقذفونه بالتجريح والقدح طوراً آخر دون أن يلتفتوا، أو يكادوا يلتفتون إلى النّصّ وما فيه من ثروات المعرفة والجمال»[3].

إن عدول عبد الملك مرتاض عن النّقد الانطباعي مردّه إلى عدم وجود حجج مقنعة يدلي بها النّاقد في الحكم على النص الأدبي، بالإضافة إلى الإفراط في الاهتمام بالمبدع بالنظر إلى ظروفه، وطريقة تفكيره، ورؤيته للحياة، في مقابل التّفريط الواضح في العناية بالنص وما يشتمل عليه من قيم جمالية وفنية.

ولم تمض فترة من الزمن على عبد الملك مرتاض حتى انتفض على المنهج الانطباعي موجها مقاصده نحو المنهج التّاريخي الذي يعنى بدراسة النص مسلطا عدسة البحث على الأسباب التاريخية التي ساهمت في كتابته، ومن الدّراسات التّي وظّف فيها هذا المنهج:

1-نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر 1925-1954.

2-فنّ المقامات في الأدب العربي.

3-فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931-1954.

تتجه هذه الدراسات ضمن السياق المنهجي ذاته؛ إلى مراجعة مختلف المدونات الأدبية من منظور النقد التاريخي؛ حيث «تشترك هذه الكتب الثلاثة بحكم إطارها المنهجي الموحد، في أنّها لا تكتفي بدراسة قلّة من

النصوص، وإنّما تتجاوز ذلك إلى دراسة المتون الأدبية (Corpus) العريضة التّي تمتد على فترة تاريخية مطولة لا تقلّ عن عشرين سنة، من جهة، كما أنّ الفاصلة التاريخية بين زمن تلك المتون وزمن دراستها لا تقل –في أحسن الأحوال– عن خمس عشرة سنة، من جهة أخرى. وهي إحدى سنن النّقد التاريخي الذّي يأبى دراسة النصوص المتزامنة مع الناقد، ولا يقوى على ذلك ما لم تدخل تلك النصوص متحف (تاريخ الأدب)»[4].

لقد تراجع عبد الملك مرتاض في مرحلة لاحقة عن المنهج التاريخي؛ نظرا لما ظهر فيه من عيوب ومزالق، كالاستقراء الناقص، والأحكام اليّقينية، وتفسير الأدب استناداً للظواهر البارزة الّتي ليس من الضروري أن تمثل نموذجا قارا لسير الحياة الإنسانية وما تقدمه من منجزات أدبية وفنية.

وبالنسبة لتجليات المنهج الاجتماعي عند عبد الملك مرتاض، فكان ظهوره متواضعا في أعماله؛ لأسباب تتعلق بالمنطلقات الفكرية والمرجعيات الفلسفية المؤسسة لهذا الاتجاه؛ حيث كان ينظر إليه على أنَّه منهج إيديولوجي أكثر منه نقدي.

وبما أن للبدايات سحرها فإن المقاربة الاجتماعية لم تفتقر لحسن الاستقبال في أول أمرها لدى الناقد الجزائري عموما؛ حيث «قوبل النّقد الاجتماعي بحفاوة كبيرة في البدء، لا أدّل عليها من الرصيد الكمي الكبير الذّي استغرقه، ثم سرعان ما حامت حوله النسّور، ويمكن أن يكون الدكتور عبد الملك مرتاض أكثر النّقاد الجزائريين جهراً بازدرائه لهذا المنهج، وزهده فيه، ورغبته عنه؛ لأنه لا همّ له إلاّ تعليل كل شيء تعليلاً طبقياً، وربطه بين الصراع والبنية الفوقية والبنية التحتية على حدّ تعبيره، رغم أنّ له سابق عهد قصير بشيء من الممارسة الاجتماعية في كتابه (فنون النثر الأدبي في الجزائر) بوجه خاص»[5].

أدرك عبد الملك مرتاض عدم جدوى المقاربة الاجتماعية في تأويل النص الأدبي مبكرا؛ لعدم إمكانية الوقوف على العامل الاجتماعي والاكتفاء به في تفسير الأدب وتعليل ظواهره؛ لأن تكوين النّص وتخريجه يكون باجتماع جوانب مختلفة فيه؛ منها ما هو نفسي، وما هو تاريخي، فضلا عن الجانب اللغوي وغيرها التّي لا يمكن للنّقد الاجتماعي أن يغطيها كلّها.

لم يتوقف الناقد عند هذا الحدّ من المتابعة المنهجية؛ بل راح يتطرق إلى النقد النفسي، أو القراءة النفسية للنصوص الأدبية؛ خاصة من حيث الناحية الاصطلاحية؛ حيث وجدناه «يشير في كتابه "في نظرية النّقد" إلى مصطلح التحليل النفسي، من خلال قيامه بنحت مصطلح من صناعته، وهو "التحلفسي"، ثم يشير إلى نشأة هذا المصطلح على يدّ العالم "فرويد" وهو منهج من مناهج علم النفس الإكلينيكي غايته الكشف بواسطة طرائق مختلفة عن هواجس النّفس وعللها الباطنية»[6].

وما يثير الانتباه بالنسبة للتطبيق المنهجي لهذا النمط من النقد عدم اهتمام عبد الملك مرتاض بالدراسة النفسية للأدب، بالرغم من أهمية العنصر النفسي في تشكيل النص، ولتعليل لهذا الأمر راح يسوق لذلك عدّة أسباب هي[7]:

– التشكيك في جدوى الدراسة النفسية للعمل الأدبي.

– تزامن ظهور المنهج النفسي في النقد الجزائري وبدايات الانفتاح النقدي لدى عبد الملك مرتاض على المقاربات النصية للأدب.

– غياب علم النفس الأدبي عن المقرارات الجامعية.

– قصور نظرية التحليل النفسي للأدبي الأمر الذي حال دون أن تكون منهجا متكاملا في دراسة النص الأدبي.

– عجز التحليل النفسي للأدب عن تأويل بعض الظواهر النصية.

– البحث في حياة المؤلف بوصفها هدفا في فهم النص؛ وهو هدف يقع أساسا خارج النص الذي لا وجود له إلا في داخله.

– تغييب العنصر الجمالي في دراسة النصوص الأدبي.

انهار صرح المناهج النّقدية السياقية، بعدما تعرضت للعديد من الانتقادات من طرف الباحثين والدّارسين، وذلك نتيجة القصور الذّي اتصفت به في التعامل مع عدة عناصر في النّص الأدبي، فضلا عن الاهتمام بالمبدع على حساب النّص، وتقفي ظروفه التاريخية والنفسية والاجتماعية، وتغييب الجانبين اللغوي والجمالي فيه، من هنا اجتمعت الأسباب وتعدّدت ليحدث تحول في الفكر المنهجي عند النّقاد الغرب في البحث عن بديل منهجي من شأنه إثبات جدواه في دراسة العمل الأدبي، وقد تبعهم في ذلك النّقاد العرب.

أظهرت المقاربات السياقية في دراساتها للنصوص الأدبية عجزا صارخا؛ من حيث تغييب جمالياتها، والوقوف عند حدود الظروف المنتجة للأثر الأدبي دون البحث في أساليب وطرائق الإنتاج الفني، فضلا عن القصور التأويلي في التعامل مع معطيات السلطة والقصد وغيرها من المفاهيم الجدلية التي غالبا ما يتسلح بها المنجز الأدبي في تمنّعه عن القراءة.

عني عبد الملك مرتاض بمفهوم التّجديد المنهجي في مقاربة النصوص الأدبية؛ خاصة الشعبية منها؛ ففي دراسته للأمثال الزراعية أشار إلى: «أننا مضطرون إلى أن نعيش عصرنا، لا عصر غيرنا –فإن عنايتنا نحن، يجب أن تفرغ لهذه النصوص الأدبية فصيحها وشعبيها، ولكن بمنهج يتسم جهده، بالحداثة، وبرؤية تحاول الاتصاف بالبعد والعمق معاً: تجمع إلى العناية بالمضمون وفلسفته، عنايتها بالشكل وجماله، فتجعل من المجال الثاني مجالاً شاسع المضطرب، ممتع المنقلب: فإذا في كل التفاتة عطاء سخي، وفي كل وقفة جمال سري، وفي كل استنتاجه حقيقة، وفي كل فكرة خلق جديد، وإبداع قشيب. فلعل مثل ذلك كفيل بأن يفرز نهضة فكرية، ويبعث مدرسة نقدية نشيطة جريئة، قصاراها العناية بالنصّ وشخصيته، لا المبدع وشخصه»[8].

وسرعان ما ثار الناقد على المناهج النقديّة السياقية التّي راحت تهتم بالظروف الخارجية للنّص، داعيا إلى التركيز عليه ولا شيء غيره؛ من حيث معطياته اللّغويّة وبناه الجماليّة، تمهيداً لظهور تصور منهجي نسقي داخلي، تتقدم فيه مقولات النسق في مقابل تراجع مقولات السياق.

سار عبد الملك مرتاض في هذا الاتجاه معلناً تحولاً نقدياً واضحا في دراساته للأعمال الأدبيّة، وهذا ما شكل لديه ثورة منهجية، كانت بمثابة «سمة لازمة تطالعنا عبر كل مؤلفاته تقريباً، والتّي لا يخلو منها من مقدمة طويلة تحدد طبيعة الدراسة التّي يتبعها، متعرضة أثناء ذلك إلى وصف المناهج الاجتماعية والنفسية والتاريخية بالإفلاس المعرفي لعدم تمكنها من ولوج عالم النصّ الأدبي بالرغم من أنّه هو شخصياً كثيراً ما مارس النّقد الأدبي تحت غطائها»[9].

ويعد هذا التحول في مسار التجريب النقدي لديه؛ مظهرا أساسيا من مظاهر المحاورة السلسة للنص الأدبي؛ فلا يشعرنا بالولاء المفرط للمنهج على حساب النص؛ وإذا وجدناه قد مارس النقد السياقي ثم عدل عنه ليس من باب الترف المنهجي، أو لركوب موجة التغيير فحسب، وإنما تبعا لما تفرضه متطلبات البحث المستمر عن آلية إجرائية تكون أكثر استجابة للحاجات النصية.

أما عن الدراسات النقدية التي قدمها عبد ملك مرتاض ضمن هذا الطرح الجديد؛ فقد تعددت وتنوعت في اختيارها للمدونات الأدبية، مع التركيز على النص الأدبي الشعبي؛ لدفع أي تأثير محتمل لسياق المؤلف في المقاربة النصية؛ وقد تمثلت هذه الدراسات في:

1-الخصائص الشكلية للشعر الجزائري الحديث 1981

2-الألغاز الشعبية الجزائرية 1982

3-الأمثال الشعبية الجزائرية 1982

4-النص الأدبي من أين؟ وإلى أين؟ 1983

5-بنية الخطاب الشعري 1986

6-عناصر التراث الشعبي في اللاّز 1987

7-في الأمثال الزراعية 1987

8-الميثولوجيا عند العرب 1989

وسرعان ما أقبل الناقد على استثمار مقولات السيميائية في دراساته للنص الأدبي، فكانت قفزة نوعية في تطور التجريب النقدي لديه؛ وبحكم حماسه الشديد لهذا الاتجاه استطاع تقديم عددا من الأبحاث في فترة وجيزة؛ متمثلة في:

1-ألف ليلة وليلة تحليل سميائي تفكيكي لحكاية حمال بغداد 1989.

2-(أ-ي) دراسة سميائية تفكيكية لقصيدة (أين ليلاي) لمحمد العيد آل خليفة 1992.

3-تحليل الخطاب السردي معالجة تفكيكية سميائية مركبة لرواية زقاق المدق 1995.

4-نظام الخطاب القرآني تحليل سيمائي مركب لسورة الرحمن 1994.

5-شعرية القصيدة قصيدة القراءة تحليل مركب لقصيدة أشجان يمانية 1995.

6-مقامات السيوطي تحليل سيميائي1996.

7-الأدب الجزائري القديم دراسة في الجذور 2000.

8-التحليل السّيمائي للخطاب الشعري- تحليل مستوياتي لقصيدة شناشيل ابنة الجلبي 2001.

**4.إشكالية التعدد المنهجي عند عبد الملك مرتاض:**

عرف النّقد الجزائري إشكالات عديدة انبثقت عن وجود خطاب نقدي متسم بالاستعجال خاصة من الناحية الإجرائية، ولعل ما عمّق أثر هذه الأزمة ذلك الإقبال الواسع على منجزات النقد الغربي دون إخضاعها للدرس والمراجعة بموازين الثقافة العربية، فقد كان الجميع في حالة بحث متسارع عن منهج يعنى باستيعاب جوانب النّص المختلفة، وتبيان قيمه الجمالية والفنيّة واللّغويّة والفكريّة.

يقول عبد الملك مرتاض في مناقشته هذا الوضع المربك: «سيظل المنهج الجاثوم المزعج الذّي يساور سبيل كلِّ الباحثين حيث إنّ كُلاًّ منهم يشرَئِبُّ إلى أن يكون منهجياً إلى أبعد حدّ ممكن، وبأقصى قدْر مستطاع؛ ولكن دون أن يبلغ الغاية في مسعاه. فكأنَّ نِشْدان التوفيق في السّعي المنهجيّ شيءٌ لا يُحقَّق. وكأنَّ هذا المنهج يشبه إرضاء فضول الناس؛ بحيث سيظلّ، هو أيضاً غاية لا تُدرَك أبداً...»[10].

ويذهب عبد الملك مرتاض في تفسيره للمسألة المنهجية إلى القول بعدم جدوى البحث عن منهج واحد في معالجة النّص الأدبي؛ ذلك أن طبيعة النّص في حد ذاتها هي التي تفرض على الناقد حالة من التّعدد المنهجي، باعتباره حاملاً للمعطيات التاريخية، والنفسية، والاجتماعية، والأيديولوجية، والبنيوية، والسيميائية وغيرها، ولهذا يصعب التعامل مع سلطة النّص بمنهج واحد ما دام يحمل في جعبته كل هذه التفاصيل، من هنا كان التّعدد المنهجي أمرا حتميا وليس مجرد اختيار يجريه النّاقد حسب رغبته.

وفي هذا السياق يطرح عبد الملك مرتاض العديد من التساؤلات في مقدمة كتابه "تحليل الخطاب السرديّ- معالجة تفكيكيّة سميائيّة مركّبة لرواية "زقاق المدق""؛ قائلاً: «أي منهج إذن هذا القادر على ما نشاء منه، أو نشاء له؟، أم يجب أن تتضافر هذه المناهج كلها، مضافاً إليها السيميولوجية والتّفكيكة من أجل محاولة فك الألغاز، وحلّ المعقَّدات، والاهتداء إلى المعميات وكيف تُكشف، وإلى أسرار الخُطُب وكيف تؤوَّل، وإلى الوظائف السردية وموقعتها، وإلى الشخصيات وتواترها وبنائها؟، وإنّا إذاً نطرح هذه الأسئلة الحيرى؛ فإنما لكي نبدي شيئاً ممّا يتأوبنا من هذا القلق المنهجي -الذّي يساورنا كلّما جئنا إلى عمل سردي- ندارسه ونخامره ونستنطقه استنطاقاً»[11].

يُظهر الناقد وعيا بصعوبة الوضع الّذي آلت إليه المقاربة النقدية الإجرائية في تعاملها مع مغاليق النص الأدبي، وكأنه يشير إلى أنه لا مناص من التّحرر من القيود المنهجيّة الصارمة، والسعي للتعدد المنهجي؛ استجابة لمتطلبات الفهم في محاورة الأثر النصي؛ بوصفه حجر الزاوية في العملية النّقديّة، ولا جدوى من التعصب لرؤية منهجية معينة وفرض طروحاتها بصفة تعسفية لا تقبلها خصوصية النّص.

ويعمد عبد الملك مرتاض إلى تعزيز فكرة التركيب المنهجي؛ بمعنى الجمع بين المناهج النقدية المتعددة مع مراعاة التوافق بينها من حيث الأصول والمرجعيات، وهذا ما يضمن الانسجام في دراسة النّص وتحليله؛ وإذا ما خرجنا عن هذه القاعدة، وجدنا أنفسنا بصدد ما يعرف بالمنهج التّكاملي؛ الذّي لا يهتم بمسألة التّوافق المرجعي، وإنّما يسعى لدراسة النصّ الأدبي بمناهج مختلفة بغض النظر عن طبيعة النتائج المتوصل إليها إذا ما كانت منسجمة ومتقاربة أم لا.

ولكي يحقق التركيب المنهجي في الدراسة النقدية مقاصده اشترط الناقد الالتزام بقاعدتين أساسيتين هما؛ أولهما جواز التركيب بين عدة مناهج تخدم رؤية نقدية واحدة، أو منطلقات فكرية متقاربة، وثانيهما جواز تطعيم المقاربة المنهجية بإجراءات نقدية مساعدة مثل الإحصاء وغيره[12].

أثارت مقولة التركيب المنهجي إشكالية اللامنهج؛ على أساس أن «المنهج الحقّ أو الأفضل أو الأصلح – سمّ ذلك ما شئت– يكمن في عدم الإخلاص أو الانصياع إلى منهج محدد بعينه»[13]؛ لأن الإخلاص المنهجي في بعض الأحيان يحجبنا عن إدراك المقاصد الحقيقية للنص، ويجعلنا نتعلق بمعطيات وهمية نفرضها عليه دون وعي منا؛ فنبتعد أكثر فأكثر عن جوهره، وتتسع الفجوة بيننا وبينه بدلاً من الاقتراب منه.

ودفعا لأسباب الوقوع في هذا المزلق الخطير ألفينا عبد الملك مرتاض من أشد النقاد «كفراً بعبودية التّوحيد للمنهج الواحد الأحد، وأكثرهم توزعاً بين المناهج المختلفة من الانطباعية إلى التاريخية إلى البنيوية إلى الأسلوبية إلى السيميائية إلى التفكيكية، إلى التركيب بين هذه وتلك، وهلم جرا... فقد يطلع اليوم على نص بمنهج ما، ثم تراه يزاور عند ذات منهج آخر، سرعان ما يقرضه ذات منهج جديد، ليس معنى ذلك أنّ النّاقد تعوزه نظرية نقدية، كما يدّعي من يؤمنون بأن من يرتضي غير هذا المنهج النقدي منهجاً فلن يقبل منه!؛ وإنّما هي الرغبة في تطويع المنهج لصالح النّصّ (والعكس لا يكون صحيحاً، وما ينبغي له أن يكون!) والرغبة في بعث النص وتجديد المنهج»[14].

معنى ذلك أن النّصّ الأدبي هو السيد الذي نختار لأجله المنهج في كل مرّة، وليس العكس، ووفق هذا التصور أسس عبد الملك مرتاض لمشروع نقدي جزائري جمع فيه بين (التراث/الحداثة) متجاوزاً الصراعات القائمة بين الطرفين، موجهاً المرساة نحو خدمة الأدب العربي والرقي به دون أدنى تأثير قد يمس بهويته، أو يقوده لمسارات غير مرغوبة خارج الوظيفة الّتي وجد من أجلها؛ لأن هذه الصراعات تحمل في طياتها أبعادا أيديولوجية قد تؤثر سلباً على الفهم الحقيقي للنّص.

## 5. خاتمة:

من خلال دراستنا لموضوع "التّحول المنهجي في الخطاب النّقدي عند عبد الملك مرتاض" خلصنا إلى مجموعة من النتائج أهمها ما يلي:

- عرفت التّجربة النّقدية عند عبد الملك مرتاض عدّة تحولات منهجية من أبرزها الانتقال من مرحلة السياق التي ميّزها حضور قوي للنّقد التّاريخي، مروراً إلى مرحلة النسق الّتي مثّلها بداية النّقد البنيوي.
- حاول عبد الملك مرتاض التأسيس لمشروع نقدي زاوج فيه بين التراث والحداثة؛ إذ كان يعول على التراث كثيراً ويعود إليه كلّما اقتضت الضرورة ذلك، محاولاً الانتفاع بمختلف النظريات التّي جاءت بها البلاغة العربية قديما، بالإضافة إلى الإفادة من الفكر الحداثي بما فيه من خلفيات فلسفية غربية، وهو ما اتضح من خلال ممارسته المنهجية المتعددة.
- يدعو عبد الملك مرتاض إلى ما يعرف بالتركيب المنهجي، وتجلى هذا التصور النّقدي في توظيف أكثر من منهج في دراسة النّص الأدبي مع مراعاة التوافق الفلسفي والمعرفي بين المناهج المركبة، في حين يرفض ما يعرف بالمنهج المتكامل؛ لأنه من غير المنطقي أن نجمع في دراسة نص واحد بين مناهج مختلفة الأصول، ومتباعدة الغايات، لأن ذلك يخلق نوعا من الارتباك والتناقض.
- زاوج عبد الملك مرتاض بين التنظير والتطبيق في أغلب أبحاثه، وهي طريقة أكاديمية ذات أبعاد تعليمية مثمرة، لأن ما يعوزنا هو التّطبيق فلا حاجة لنا بنظريات نقدية لا نحسن تطبيقها على النّص من أجل الاستفادة منها.

## 6. الهوامش:

[1]- عبد السلام مرسلي، جدلية التراث والحداثة في الخطاب النّقدي الجزائري- قراءة في الموقف النقدي لـ"عبد الملك مرتاض"، مجلة المقال، جامعة 20 أوت 1955، سكيكدة، الجزائر، المجلد 1، العدد 1، 2015، ص25.

[2]- نصر حامد أبو زيد، إشكالية القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت- لبنان، ط5، 1999، ص09.

[3]- يوسف وغليسي، النقد الجزائري المعاصر من "اللاّنسونية" إلى "الألسنية"، إصدارات رابطة إبداع الثقافية، د ط، الجزائر، 2002، ص71.

[4]- يوسف وغليسي، الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، دار البشائر للنشر والاتصال، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، د ط، الجزائر، 2002، ص38.

[5]- يوسف وغليسي، النّقد الجزائري المعاصر من "اللانسونية إلى الألسنية"، ص61.

[6]- شارف فضيل، مستويات الخطاب النقدي عند "عبد الملك مرتاض" –قراءة في المنهج-، رسالة ماجستير، مشروع الخطاب النّقدي في الجزائر بين النظرية والتطبيق، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران، الجزائر، 2013-2014، ص634-635.

[7]- يونس بوناقة، محمد عبد الفتاح مقدود، عبد الملك مرتاض ناقداً- قراءة في توظيفات عبد الملك مرتاض للمناهج السّياقية في أعماله الأدبيّة والنّقدية، مجلة مقامات، الجزائر، المجلد: 05، العدد: 01، 2021، ص634-635.

[8]- عبد الملك مرتاض، في الأمثال الزراعية "دراسة تشريحية لسبعة وعشرين مثلاً شعبياً جزائرياً"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص6.

[9]- محمد مكاكي، التجربة النقدية الجزائرية المعاصرة، دار جليس الزمان للنشر والتوزيع، الأردن- عمان، ط1، 2014، ص64.

[10]- عبد الملك مرتاض، الأدب الجزائري القديم (دراسة في الجذور)، دار هومة، الجزائر، 2009، ص11.

[11]- عبد الملك مرتاض، تحليل الخطاب السرديّ- معالجة تفكيكيّة سيميائيّة مركّبة لرواية "زقاق المدق"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص3.

[12]- ينظر: نفسه، ص92-93.

[13]- سعدلي سليم، المنهج التكاملي بين الفرض والقبول، مجلة الممارسات اللّغوية، كلية الآداب واللّغات، قسم اللّغة العربية وآدابها، جامعة مولود معمري، تيزي وزو- الجزائر، العدد 17، 2012، ص191.

[14]- يوسف وغليسي، الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، ص8.

## 7. قائمة المراجع


- **المؤلفات:**

1. عبد الملك مرتاض، الأدب الجزائري القديم (دراسة في الجذور)، دار هومة، د ط، الجزائر، 2009.
2. عبد الملك مرتاض، تحليل الخطاب السرديّ- معالجة تفكيكيّة سميائيّة مركّبة لرواية "زقاق المدق"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995.
3. عبد الملك مرتاض، في الأمثال الزراعية "دراسة تشريحية لسبعة وعشرين مثلاً شعبياً جزائرياً"، ديوان المطبوعات الجامعية، د ط، الجزائر، 1984.
4. محمد مكاكي، التجربة النقدية الجزائرية المعاصرة، دار جليس الزمان للنشر والتوزيع، ط1، الأردن- عمان، 2014 .
5. نصر حامد أبو زيد، إشكالية القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط5، بيروت- لبنان، 1999.
6. يوسف وغليسي، الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، دار البشائر للنشر والاتصال، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، د ط، الجزائر، 2002.
7. يوسف وغليسي، النقد الجزائري المعاصر من "اللاّنسونية" إلى "الألسنية"، إصدارات رابطة إبداع الثقافية، د ط، الجزائر، 2002.

- **المقالات:**

8. عبد السلام مرسلي، جدلية التراث والحداثة في الخطاب النّقدي الجزائري- قراءة في الموقف النقدي لـ"عبد الملك مرتاض"، مجلة المقال، المجلد 1، العدد 1، جامعة 20 أوت 1955، سكيكدة، الجزائر، 2015.
9. يونس بوناقة، محمد عبد الفتاح مقدود، عبد الملك مرتاض ناقداً- قراءة في توظيفات عبد الملك مرتاض للمناهج السّياقية في أعماله الأدبيّة والنّقدية، مجلة مقامات، المجلد: 05، العدد: 01، الجزائر، 2021.
10. سعدلي سليم، المنهج التكاملي بين الفرض والقبول، مجلة الممارسات اللّغوية، العدد 17، كلية الآداب واللّغات، قسم اللّغة العربية وآدابها، جامعة مولود معمري، تيزي وزو- الجزائر، 2012.

- **الرسائل الجامعية:**

11. شارف فضيل، مستويات الخطاب النقدي عند "عبد الملك مرتاض" –قراءة في المنهج، رسالة ماجستير، مشروع الخطاب النّقدي في الجزائر بين النظرية والتطبيق، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران، الجزائر، 2013-2014.